لغة العرب

مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية

الجزء ٥ — من السنة ٥

اسرة ترزي باشي

Terzi Bashi et sa Famille.

١ – تمهيد

كنا قد نعينا القراء الكنتس سيدي أصفر (٥ : ٦٤) ووعدناهم ان نوافيهم بترجمتها وترجمة اسرتها والى هذا الحين لم يتسع لنا المجال لادراج المقال. فجئنا اليوم بهذه السطور انجازا لما وعدنا به.

٢ – تعريف بيت ترزي باشي

في نحو اوائل الربع الاخير من القرن الثامن عشر للميلاد، اقبل من ديار بكر (آمد القديمة) خياط ارمني غير كاثوليكي صناع اليد اسمه: «الياس آغا (١) ترزي باشي (٢) وما كاد يلقي عصاه حتى اقبل عليه اغلب كبار القوم ليخيطوا عنده كل ما يلبسونه من الثياب.

واتفق ان كان في بغداد يومئذ البطريرك يوحنا هرمز اسقف الموصل

(١) ورد ذكره بهذه الصورة في كتاب «عناية الرحمان في هداية السريان» للسيد ديونوسيوس افرام نقاشة في ص ٣٦١.

(٢) ترزي باشي كلمتان تركيتان معناهما: «خياط رئيس» وكان يلقب به من يخيط لكبار الحكام او الولاة او رؤساء الجند.

النسطوري سابقا، والبطريرك الكلداني بعد ذلك ،وكان قد سامه عمه البطريرك ايليا النسطوري مطرانا سنة ١٧٧٦ ليكون خليفته بعد موته بحق الارث ، على مالوف عادة النساطرة الى هذا العهد. ولما كان مات عمه ايليا المذكور سنة ١٧٨٠ انتصب على السدة البطريركية وجحد النسطورية وصبأ الى الكاثوليكية ؟ ولكن بقي ردحا من الزمن معدودا مطرانا فقط للموصل حتى اثبت بطريركيته البابا بيوس الثامن سنة ١٨١٠ وكان الحبر الاعظم لاون الثاني عشر ازال في سنة ١٨٢٨ تمييز بطريرك ديار بكر (آمد) عن بطريرك الموصل ، وحصر البطريركية في واحد يلقب ببطريرك بابل ويجلس في الموصل .

اذن كان البطريرك حنا هرمز في بغداد سنة ١٨٢٨ ، فاقنع الياس اغا ترزي باشي بان ينكر مذهبه وياخذ بمذهب الكاثوليك ففعل . ولما لم يكن يومئذ للارمن الكاثوليك كاهن خاص بطائفتهم ، انضم الى الكلدان (١)

وتزوج الياس آغا ورزق ابنين وابنتين . اسم الابن الواحد « عبوش » (وهو تصغير عبدالله من باب التحبيب) واشتهر بالخياطة كابيه فلقب هو ايضا بترزي باشي عند الوالي واصحاب الامر وفي مقامه هذا اذى خدما لاتحصى لنصارى بغداد ، ولا سيما نجاهم من مظالم عديدة كانت تحل بهم كل يوم الوانا — واسم الابن الثاني « خضر » والعامة ترقق الضاد وتقول خدر . — و اسم الابنة الواحدة « مروشي » (اي مريم من باب التحبيب) واسم الاخرة «سارته»

ولما شب خضر رسمه البطريرك حنا هرمز شماسا فاشتهر بعد ذلك بالشماس خضر (٢) . وتزوج ابنة اسمها مريم فولدت له ولدين وهما الياس و حنا .

(١) اخذ الكهنة الارمن الكاثوليك يتواردون الى بغداد بلا انقطاع البتة منذ اوائل الربع الاخير من القرن الثامن عشر .

(٢) معنى الخضر في اصل وضعه :الاسمر او الاسود . ووضع تعريبا لكلمة (فنحاص) المصرية التي معناها كذلك . وكان فنحاص غيورا على دينه فاطلق بعده على كل من يغار على معتقده . فوصف به الياس النبي حتى اشتهر به اكثر من سواه فيقول اجدادنا «الخضر الياس » ونصارى سورية وفلسطين نعتوا بالخضر القديس جرجيس بل قد يستغنون بالنعت عن المنعوت ، فيقولون الخضر وهم لايريدون الا هذا القديس وليس سواه . وكنا قد انشأنا مقالة في نحو ستين صفحة من هذه المجلة لتاييد هذا الرأي فاكتفينا بهذه الزبدة ريثما يتسع لنا المجال فنأتي بالشواهد المطولة اثباتا لذلك .

فتزوج الياس مرومة بنت انطون نعيم (١) فرزق منها اربع بنات وابنا .
اما الابن يوسف فذهب الى ايران للتجارة واقام في جلفا قرب اصفهان وهناك توفي من غير ان يخلف عقبا . واما البنات فهن لوسي وكترينة واشموني وسيدي ريجينة .

فلوسي تزوجت رفائيل بن عبدالمسيح المارديني .

وكترينة تاهلت بتوماس بحوش الذي توفي بعد حين فتزوجها واسيلاكي الصيدلي الرومي .

واشموني تزوجت حنا بن بهنام النقار الذي اشتهر بعد ذلك باسم حنا النقار وهو موصلي الاصل .

اما سيدي ريجينة التي من اجلها قدمنا كل هذه المقدمة فدونك ما نعرف عنها منذ صغرنا .

٣ ـ الكنتس سيدي اصغر

سيدي ريجينة بنت الياس ابن الشماس خضر بن الياس آغا ترزي باشي الديار بكري (او الآمدي) ، عمدت في ١٥ ايار سنة ١٨٤٦ ، عمدها القس اندراوس هندي الكلداني وكانت عرابتها هلوش ؛ ولما ترعرعت ، اظهرت من الذكاء والتقى والعبادة ماميزها عن جميع اترابها ، وقد تلقت آدابها الاولى عن الراهبات الوطنيات اللواتي كن يومئذ في بغداد ، وكن يعرفن باسم « عابدات الله » ؛ ولما ظهر لها مافي الدنيا من المخاطر ، ارادت ان تنتسب الى الدرجة الثالثة من رهبانية الكرمل ، فطلبت الى رئيس المبعث (وكان يومئذ الاب مارية يوسف ليسوع) ان يعنى بامرها . فبعثها مع رفيقاتها الى دير راهبات المحبة في بيروت سنة ١٨٦٨ لتتعلم مايجب تلقيه قبل ان تنخرط في السلك الذي تتوق اليه .

وفي سنة ١٨٦٩ ذهب الاب مارية يوسف الى رومة . وفي عودته من رومة مر ببيروت فتلقى في كنيسة راهبات المحبة نذر الابنة سيدي ريجينة مع سائر

(١) بالتصغير اى بتصغير نعيم ويكون بضم النون وفتح العين وكسر الياء المشددة وفي الاخر ميم .

رفيقاتها تا كوهي (١) وسميت بريجيتة وهي ابنة حنا «ابو الرماح» ابن الشماس خضر بن الياس آغا ترزي باشي وماري راندكويست.

وبعد ذلك بقليل عادت الى بغداد بعد ان تعلمت اشغال الابرة واصول اللغة العربية والفرنسية .

ولما جاءت الى بغداد رات رفيقاتها انها اذكاهن واتقاهن فعينها رئيسة لهن بعد ان فتح لهن دير هو دير المنسوبات الى الدرجة الثالثة المذكورة .

وكن جميعا عشرا مع كامل انهن يزددن مع الزمن ، ليساعدن بعد ذلك المرسلين الكرمليين في مهنتهم اي ان الرهبان يعنون بتهذيب البنين و الثالثيات الكرمليات بتهذيب البنات .

بقي هذا الدير للراهبات يسير سيرا حسنا ، إلّا ان القاصد ماري لويس ليون الدمنكي — وكان سابقا رئيس مبعث الدمنكيين في الموصل الذي رسم في ١٧ نيسان ١٨٧٤ قاصدا لما بين النهرين — زار الدير زيارة قانونية فتعجب من تقوى اولئك الثالثيات ومن فقرهن ومن تفانيهن في سبيل حب القريب ونفعه من غير ان يكون لهن وسائل مالية يواصلن بها اعمالهن، ورأى من الواجب ان يطلق الحرية لهن وان كن قد رضين بحالتهن تلك . وهكذا فرقهن واباح لهن ان يرجعن الى بيوتهن او يذهبن الى ديارات تغزر فيها وسائل المعيشة ، كما اكد لهن ان لامانع من زواجهن لانهن لم ينذرن إلّا نذر المنسوبات الثالثيات. وهذا النذر لايمنع اصحابه (ذكورا كانوا او اناثا) من التزوج والعناية بالاولاد . فمن هذه الشواب جماعة ذهبت الى سائر الديرة وبعضهن اقمن في البيت واخريات تزوجن .

ولما كان وجود راهبات ضروريا لتهذيب نصرانيات العراق جلب القاصد

(١) في سنة ولادة تا كوهي (او بريجيتة) وقعت مناقشة بين والدها وبين مختار الكلدان الذي كان يومئذ فرنسيس قشا بخصوص بدل العسكرية او الخراج فاغتاظ مختار الكلدان من كلام خصمه ، ومنذ ذاك الحين راجح خصمه هذا رئيس طائفته الاصلي الارمني الكاثوليكي . وهكذا انقسم البيت الى قسمين قسم بقي كلدانيا وقسم عاد الى طقسه الارمني . وتوفيت بريجيتة في ١٤ آب سنة ١٩٢٧

المذكور راهبات تقدمة العذراء الدمنكيات الفرنسيات لهذه الغاية ، فجئن في سنة ١٨٨٠ من تور (فرنسة) .

اما سيدي فذهبت الى بيت اهلها محافظة على تقواها واشغالها داعية الكل بامثالها الى حب الفضيلة وتوخي مكارم الاخلاق . فخطبها جبرائيل بن حنوش اصفر وهو شاب مهذب يتعاطى يومئذ التجارة في البصرة وكان معروفا هو ايضا بكبريات الاعمال وجلائل المبرات . فرضيت بعز وجا بعد ان كانت قد رفضت ايدي شبان عديدين لم يكونوا اكفاء لها ، بل كانت قد رفضت يد الفاضل جبرائيل نفسه مرارا ، الا انها لما تحققت انه يلح في طلبها ، رأت في هذا الالحاح امرا آتيا من السماء لتنشىء لها بيتا مبنيا على اسس الفضيلة واعمال البر ، اذن تزوجت سيدي في البصرة في ١٠ نيسان سنة ١٨٨٣

ما كادت سيدي تقترن بالشاب اصفر إلا نظمت البيت على احسن وجه وعنيت بجميع الموظفين الذين يشتغلون في محل زوجها ، كما قامت بالفرائض التي كتبت عليها لتيسير طرق التقى والعبادة وحسن السلوك على جميع الخدام الذين كانوا يستخدمون في داخل البيت وكانوا عشرات ، وما كانت تفرق بين نصراني وغير نصراني ، اذ الجميع كانوا في نظرها اخوة لها لا خدما او مستأجرين ، ولهذا كنت ترى جميع المستخدمين عندها يعزونها ويكرمونها اكرام الاولاد لامهم . وكان المسلمون في دارها اكثر من النصارى واليهود لما رأوا فيها من عنايتها بهم ذلك الامر الذي لم يروه في سائر المحلات التي خدموا فيها .

رزقت عدة بنين وابنة واحدة ، اما البنون فلم يعش منهم إلا «البر» والابنة الوحيدة التي رزقها الله هي «جوزفين» فربت الوالدين بعناية لاتوصف اذ جلبت لهما معلمين في بيتها لتقوم هي ببقية ماقد انتدبت له من امر التهذيب والتأديب .

ومع كل غناها وحسن حالها ، ما كنت تراها تلبس الثياب الغنية ولا الحلى وكرائم الحجارة ، بل كانت تكتفي بثياب نظيفة لائقة بمقامها ، وكانت تكره السهرات والمراقص والولائم والحفلات الكبيرة ، اذ كانت قد تحققت ماتحت ظواهر هذه المواسم من السموم التي لاتبقي ولا تذر .

وكان لها ولزوجها صلات باكابر الناس من وطنيين واجانب ولا يخلو البيت

من ضيوف ليل نهار، فكانت تقوم بواجبهم بينما كان زوجها معتنيا بامور التجارة.

وفي سنة ١٩٠٦ منح الحبر الاعظم جبرائيل اصفر لقب « كنت » او كما يقول سلفنا « كند او قند Comte » وهذا الترفيع لم يغير شيئا في حال الكندة او الكنتس ؛ اذ من كان مقامه من الفضل في مناط العيوق ، لا يزيده علوا اذا ما اقر له بالفير .

وذهب اهل البيت كله الى لندن لاشغال التجارة فلم يكن ذلك مما سبب لاصحابه حياة جديدة غير الحياة التي الفوها في البصرة . والذي انتفعوا منه هو ان الابوين ادخلا ولديهما في مدرسة عالية في لندن ليتلقيا فيها اللغة الانكليزية وآدابها ريثما يتم للاسرة انتظام امورها التجارية فجاءت الاقامة في عاصمة الانكليز ذات فائدتين : فائدة علمية ادبية وفائدة تجارية .

رجع الجميع من ديار الغرب والمنتسبون الى هذا البيت الكريم على اتم مثال للفضل والفضيلة وكان كل واحد من اعضائه في رأس عمل بر او شركة او جمعية . وكانت المساعدات التي تبذلها الكندة على الفقراء والمعوزين فوق كل تصوير . وكانت اليد اليسرى تجهل ما تأتيه اليد اليمنى ؛ دع عنك اشغال البيت التي كانت تقوم بها خير قيام ، فلقد كانت السيدة الكندة مثالا حيا للنشاط والهمة والسعي اذ لا تدخل بيتها إلّا تراها مشتغلة بامور مختلفة . ولو كان عندها من الخدم والحشم فوق ما يرى في سائر البيوت والدور . وكلما كان الموظفون يرونها على هذا الوجه من الكد والجهد كانوا ينشطون في العمل ويتعلمون منها تدبير الشؤون في الداخل .

والخلاصة انه صح فيها كلام سفر الامثال القائل : لباسها العز والبهاء وهي تفرح في اليوم الاخير . تفتح فاها بالحكمة . وفي لسانها سنة الرحمة . تلاحظ طرق بيتها ولا تاكل خبز الكسل . يقوم بنوها فيغبطونها ورجلها فيمدحها . ان بنات كثيرات اقمن لانفسهن فضلا . اما انت ففقتهن جميعا . الظرف غرور والجمال باطل ، والمرأة المتقية للرب هي التي تمدح . اعطوها من ثمر يديها ولتمدحها في الابواب اعمالها .